الكناية وخصائصها التداولية:
القزويني أنموذجا

د . زوليخة قادة
- المملكة المغربية -

الملخص:

هذا البحث يتناول العلاقات الممكنة الموجودة بين حقلين معرفيين مهمين هما: حقل البلاغة العربية والتداوليات، ويركز على إبراز نقط الالتقاء التي تثبت الحياة الممتدة للتراث العربي ممثلا في البلاغة، وقد اعتمدت لأجل هذا مبحث الكناية لأبرز أنها من الوسائل التعبيرية التي اعتمدها العربي، ولم يفصلها عن أبعادها التداولية تنظيرا وممارسة، فراعى فيها كل ما يتعلق بالسياق وبناء المعنى وغيرهما.

Abstract :

This research is about the relation between pragmatics and the arabic rhetoric, becouse There is no doubt that the arabic rhetoric contains the concepts of what can be invested in achiveing persuasion, it is important to employ these methods rhetorical purpose in the service of improving that the arabic rhetoric is steel alive .

I take a *metonymy* as an exemple, becouse of his relation with a lot of pragmatic concepts such as : context , building of the meaning... ect

This is a new vision to preserving the arabic language.

توطئة:[1]

تعتبر الكناية من أكثر الفنون البلاغية تصويرا لفكرة الرمز، لأن الألفاظ فيها تتجاوز حدودها الصريحة، لتصبح رؤية تختزل في طياتها معاني كثيرة لها صلة بتصورات العربي وخبراته ونظرته للغة والألفاظ والوجود أيضا.

وهي فن يكشف عن غزارة تفكير الإنسان العربي القديم، وارتباطه بالمجرد والعقلي وبعده عن السطحي والساذج.

وقد احتلت الكناية مكانا مركزيا في الدراسات البلاغية، نظرا لبعدها عن التصريح، وارتباطها بالتضمين.

كما أن دراسة الكناية شهدت تطورا عبر تاريخ الدراسات البلاغية، إذ درسها أولا أبو عبيدة (ت 210هـ) في كتابه «مجاز القرآن» فذهب إلى أنها ما فهم من الكلام والسياق من غير أن يذكر اسمه صريحا في العبارة، ثم الجاحظ (ت 255هـ) في كتابه «البيان والتبين» وربط بينها وبين التعريض، ثم المبرد (ت 285هـ) في «الكامل» الذي جعل الكناية على ثلاثة أضرب هي التعمية والتغطية، الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، التفخيم.

أما ابن المعتز(ت 292هـ) فقد اعتبرها من محاسن الكلام، في حين أن قدامة بن جعفر (ت 337هـ) جعلها ضربا من دلالة اللفظ القليل على المعاني الكثيرة في كتابه «نقد الشعر»، وقد ربط أبو هلال العسكري (ت395هـ) بين الكناية والتعريض هو أيضا في كتابه «الصناعتين»، واعتبرها ابن رشيق

1اعتمدت في هذه التوطئة على مرجعين هما:

نائلة قاسم . رسالة لنيل الماجيستير بعنوان «الكناية في ضوء التفكير الرمزي» . السنة: 1984م . ص 7 إلى 47.

محمود شاكر القطان . الكناية: مفهومها وقيمتها البلاغية . مطابع الأهرام التجارية . السنة: 1993م . ص: 20 إلى 136.

القيرواني (ت463هـ) في كتابه «العمدة» نوعا من أنواع الإشارات، ودليلا على حذق المتكلم ومهارته ومقدرته.

أما ابن سنان الخفاجي (ت 446هـ) فقد عد الكناية مظهرا من مظاهر الفصاحة، خاصة إذا وافقت مقاما يتطلب ذلك، وميز فيها بين الرديء والجيد في كتابه «سر الفصاحة».

ويعتبر أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني (ت 482هـ) الذي ألف كتاب «كنايات الأدباء وإشارات البلغاء»، وأبومنصور الثعالبي (ت429هـ) الذي كتب كتاب «الكناية والتعريض» أو ما عرف بـ «النهاية في فن الكناية» أهم كاتبين خصصا كتبا بأسرها لفن الكناية وأفردا لذلك النماذج والأمثلة.

ولكن نضج مبحث الكناية لم يستقر إلا مع عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في كتابيه «أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز»، حيث نظر نظرة فنية جمالية للكناية، وعرفها بقوله: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه»[1] وأكد أن للكناية مزية على التصريح، لأنها تدل على التأكيد والمبالغة.

ويعزى إلى الجرجاني فضل اكتمال تعريف الكناية وبيان شروط حسنها وأقسامها ومزيتها.

ثم يأتي الزمخشري (ت548هـ) صاحب تفسير «الكشاف» الذي يعرف عنه موسوعيته وامتلاكه لأدوات التحليل والتفسير المختلفة، ليدرس الكناية من خلال كتاب الله عزوجل، وهي دراسة رائدة في زمانها لأنها استطاعت تخليص

1 -عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز في علم المعاني. المكتبة العصرية/ بيروت. شرح: ياسين الأيوبي. الطبعة الأولى. السنة: 2002م. ص: 113.
ابن منظور. لسان العرب. المجلد الخامس عشر. ص: 233 /234. بتصرف.

الكناية من بعدها القواعدي الجاف، وربطها بخصائص الجمال والفنية والإعجاز التي نجدها ملاصقة للخطاب القرآني.

وتتابعت بعد ذلك الدراسات التي اهتمت بالكناية، حيث درسها ابن الأثير (ت637هـ) في «المثل السائر»، وابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ) في «تحرير التحبير» وغيرهم...إلى أن نصل إلى الخطيب القزويني (ت739هـ) مدار البحث، الذي درسها في كتابيه «التلخيص»و»الإيضاح»، فكيف نظر الخطيب للكناية؟ وما هي أبعادها وخصائصها التداولية عنده؟

1 - تلخيص باب الكناية في كتاب «الإيضاح» للقزويني:

إن الكناية تفتح المجال واسعا أمام المتكلم ليعبر عما لا يستطيع التصريح به، هذا التعبير الذي يشغل ذهن المخاطب، فيجعل المعنى يتشعب ويتسع.

وقبل أن أشرع في تلخيص باب الكناية في كتاب «الإيضاح»، أشير إلى معنى الكناية لغة في المعجم، فلو عدنا للسان العرب لوجدنا ما يأتي:

«كني : الكنية على ثلاثة أوجه : أحدها أن يكنى عن الشيء الذي يستفحش ذكره ، والثاني أن يكنى الرجل باسم توقيرا وتعظيما ، والثالث أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه، والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره. وقد تكنى وتحجى أي تستر، من كنى عنه إذا ورى، وكنوت عنه إذا وريت عنه بغيره»[1].

انطلاقا من الدلالة اللغوية لفعل (كني)، نجد أن مزايا الكناية ما يأتي:

- التأدب بعدم ذكر الفاحش من الكلام.
- التوقير والتعظيم.
- القيام مقام الاسم.

أما دلالاتها فمدارها ما يأتي:

1. ابن منظور. لسان العرب. المجلد الخامس عشر. ص: 233/234. بتصرف.

-التلميح دون التصريح.

- التستر.

- التورية.

وقد جمع هذه الدلالات كلها الدكتور محمود شاكر القطان الذي يقول: «إن الكناية لغة إنما هي العدول عن لفظ إلى آخر دال عليه، وهذا العدول عنه لا يعني ستره وإخفاءه، كما لا يعني إبرازه وإظهاره، وإنما هو مجرد تركه، والإعراض عنه، لا أكثر، فالمكنى عنه ليس بالواضح وضوح المذكور صراحة، ولا هو بالخفي الذي لا تكاد تتبينه إلا بتدقيق، وإمعان نظر. فهو أشبه ما يكون بالمكسو بثوب رقيق شفاف، فلا هو عار، ولا هو مستور ستر المورى عنه، وأية دلالة أخرى إنما هي مقحمة دخيلة على مادة اللفظ كلها لا الكناية وحدها»[1].

إن الكناية انطلاقا من كلام د. محمود شاكر القطان تتنزل في موضع وسط بين الكشف والخفاء، بين الحجاب والسفور، بين التصريح والتضمين وهذا ما يجعلها ملاصقة لميسم الجمال.

فكيف نظر القزويني إلى الكناية؟

حين نتصفح كتاب «الإيضاح في علوم البلاغة» نجد أن القزويني جعل الكناية آخر مبحث تحدث عنه في فن البيان، وقد سوغ هذا الترتيب بقوله: «فانحصر المقصود في التشبيه والمجاز، والكناية، وقدم التشبيه على المجاز على ما ذكرنا، من ابتناء الاستعارة التي هي مجاز على التشبيه، وقدم المجاز على الكناية، لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل»

يبدأ القزويني باب الكناية بتحديد حدها الاصطلاحي، فيقول: «الكناية: لفظ: أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ...فالفرق بينها وبين المجاز

1.محمود شاكر القطان. الكناية مفهومها وقيمتها البلاغية. ص: 8.

من هذا الوجه، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه، فإن المجاز ينافي ذلك»[1].

إن الكناية عند الخطيب تتعلق بأمرين هما:

- أنها تتعلق بالمعنى اللازم الضمني غير المباشر.
- أنها تتعلق بالمعنى الصريح المباشر.

وجواز حملها على المعنيين معا، هو الذي يميز الكناية عن المجاز، لأن هذا الأخير لا يحمل إلا على المعنى الضمني، ولا يمكن حمله أبدا على المعنى الصريح المباشر.

وإن كان حديث القزويني في الكناية عن جواز إيراد المعنى الأصلي، حديثا غير مقبول تماما، لأنها قاعدة لا تقبل الاطراد في بعض الأمثلة خاصة القرآنية منها، فقوله تعالى مثلا» ليس كمثله شيء «الشورى/ 11، يمتنع حمله على الحقيقة إذ لو حمل عليها لجاز أن يكون لله مثيل تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي:

أ - الكناية المطلوب بها غير صفة ولا نسبة:

ويطلب بها الموصوف، دون الصفة والنسبة، وهي تفهم من العمل أو الصفة أو اللقب الذي انفرد به الموصوف.

وهي بدورها تنقسم إلى قسمين:

أ.1 ما هو معنى واحد:

كقول عمرو بم معد يكرب:

الضاربين بكل أبيض مخدم والطاعنين مجامع الأضغان

ف»مجامع الأضغان» كناية عن القلب لأنه مكمن الضغائن.

1-القزويني. الإيضاح. ص: 475.

أ.2 ما هو عدة معان:

يضرب مثلا على ذلك هو: حي، مستوي القامة، عريض الأظفار. كناية عن الإنسان.

ب - الكناية المطلوب بها صفة:

والمقصود بالصفة هنا الصفات المعنوية كالجود والكرم والسماحة...لا النعت النحوي، وهي صفة لازمة لمعنى التركيب.

يقسمها إلى ثلاثة أقسام:

ب.1 القريبة الواضحة: لا يحتاج الانتقال فيها من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني إلى واسطة، مثل قول العرب: «طويل النجاد» كناية عن طول القامة.

ب .2القريبة الخفية: كقولنا: «عريض القفا» كناية عن الأبله.

ب .3البعيدة: التي نحتاج فيها للواسطة حتى ننتقل من المعنى الصريح إلى المعنى اللازم، ومنه قول الشاعر:

وما يك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

يشرح القزويني المثال بقوله:

«فإنه ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يدنو من دار من هو بمرصد لأن يعس دونها، مع كون الهرير في وجه من لا يعرفه طبيعيا له، إلى استمرار تأديبه، لأن الأمور الطبيعية لا تتغير بموجب لا يقوى، ومن ذلك إلى استمرار موجب نباحه وهو اتصال مشاهدته وجوها إثر وجوه، ومن ذلك إلى كونه مقصد أدان وأقاص، ومن ذلك إلى أنه مشهور بحسن قرى الأضياف.

وكذلك ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم، ومنه إلى قوة الداعي إلى نحرها، لكمال عناية العرب بالنوق لا سيما المتليات(التي تتبعها صغارها)، ومنها إلى صرفها إلى الطبائخ، ومنها إلى أنه مضياف»[1].

1.القزويني. الإيضاح. 478 /479.

ج - الكناية المطلوب بها نسبة:

هي التي يصرح فيها بالصفة ولكنها تنسب إلى شيء متصل بالموصوف.

ومنها قول الشاعر الشنفرى الأزدي في وصف امرأة ما بالعفة:

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت

«فإنه نبه بنفي اللوم عن بيتها على انتفاء أنواع الفجور عنه،وبه على براءتها منها، وقال يبيت دون يظل لمزيد من اختصاص الليل بالفواحش.»[1].

ثم يختم القزويني حديثه عن باب الكناية، بالحديث عن أقسام هذه الأخيرة عند السكاكي، ويحددها في أربعة أقسام هي:

- التعريض: هي أقرب للتصريح، حيث نصل للمعنى اللازم من غيروسائط.
- التلويح: إن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط.
- الرمز: إن كان فيها نوع من الخفاء.
- الإيماء والإشارة: إذا كان الخفاء غيردقيق، وإنما هوللوضوح أقرب منه للغموض والإلغاز.

يردف القزويني كلامه هذا، بالحديث عن قيمة الكناية، وبأنها أبلغ من التصريح، وينقل كلاما عن الجرجاني مفاده أن التعبير بالكناية فيه انتقال من الملزوم إلى اللازم، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته دعواه بلا بينة.

ولو عدنا لكتاب «التلخيص» لوجدنا أن القزويني أجمل باب الكناية إجمالا أخل بجمالها، حيث جاء تلخيصه فقيرا من الشواهد فقيرا من التعليق عليها.

ولهذا ارتأيت الاعتماد على كتاب «الإيضاح» لما فيه من الإبانة والتوضيح، وكثرة الشواهد الشعرية والقرآنية والأمثلة النثرية، التي أظهرت قيمة

1- المرجع نفسه .ص: 484.

الكناية بلاغيا من خلال التأثر بدراسات من سبقوه كعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي.

وقبل أن أمر إلى الكشف عن البعد التداولي لفن الكناية أختزل ما قلته سابقا في الخطاطتين الآتيتين:

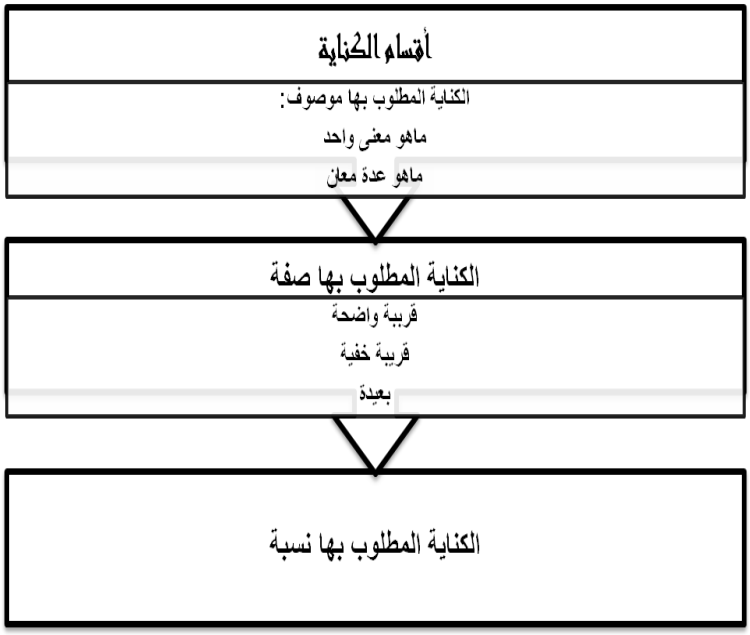

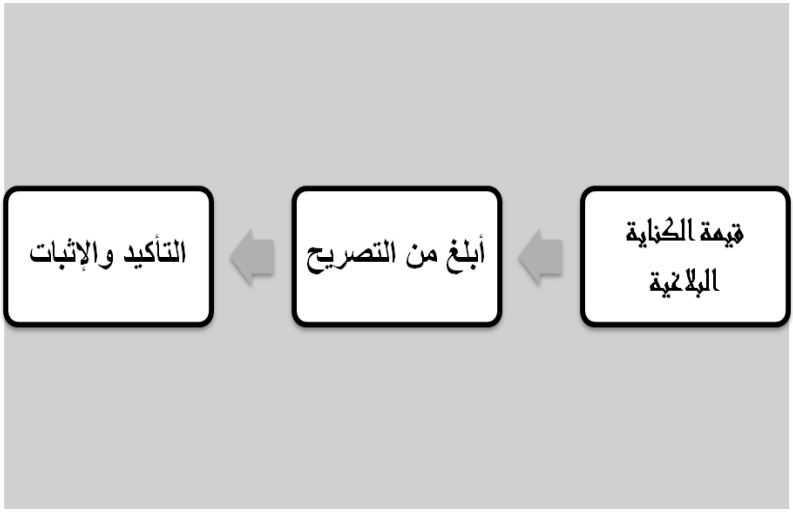

2 - الخصائص التداولية لفن الكناية عند القزويني من خلال كتاب «الإيضاح»:

وأنا أقرأ الكناية عند القزويني أثار انتباهي وجود ملامح تداولية في طريقة حديثه عنها وسأستعرضها كالآتي:

أ - الكناية والسياق الثقافي الذي تنتمي إليه:

حين يتحدث القزويني عن الكناية، يفترض بشكل غير مباشر أنها يجب أن تستخدم بين متخاطبين يشتركان في الانتماء للسياق الثقافي نفسه، لأن الكناية إن جاز التعبير هي بنت التربة التي تولد فيها، ويظهر هذا مثلا في حديث القزويني عن قول العرب: «فلانة نؤوم الضحى»، يعلق على هذه الكناية بقوله: «أي: مرفهة مخدومة، غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات، وذلك أن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش، وكفاية أسبابه، وتحصيل ما يحتاج إليه في تهيئة المتناولات، وتدبير إصلاحها، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها في السعي لذلك»[1]

فنلاحظ قول القزويني: وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش، ففي هذا إشارة إلى السياق الثقافي العربي الذي يربط وقت السعي بالصباح الباكر، بمعنى آخر: إن هذه الكناية لا تفهم إلا في سياق البيئة العربية أو أية بيئة أخرى لها نفس الرؤية، فقد نكون أمام ثقافة أخرى قد لا تعد نوم المرأة لوقت الضحى مدعاة لفهم معنى ضمني غير الصريح أو مدعاة للتأول، فقد تكون هذه مجرد عادة عندهم حتى لو كانت المرأة غير شريفة عندهم (فقيرة).

يظهر تركيز القزويني على السياق الثقافي في تفسيره للكنايات التي قد تبدو متضادة سطحيا، ولكنها في العمق تعبير عن المعنى نفسه.

يقول: «وكذا قول من يصف راعي إبل أو غنم:

1- القزويني. الإيضاح. ص: 475

ضعيف العصا، بادي العروق ترى له

عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

وقول الآخر:

صلب العصا، بالضرب قد دماها

أي جعلها كالدم في الحسن.

والغرض من قول الأول: ‹ضعيف العصا› وقول الثاني ‹صلب العصا› وهما وإن كانا في الظاهر متضادين فإنهما كنايتان عن شيء واحد، وهو حسن الرعية، والعمل بما يصلحها، ويحسن أثره عليها.

فأراد الأول أنه رفيق مشفق عليها، لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة، فهو يتخير ما لان من العصا.

وأراد الثاني أنه جيد الضبط لها، عارف بسياستها في الرعي، يزجرها عن المراعي التي لا تحمد، ويتوخى بها ما تسمن عليه، ويتضمن أيضا أنه يمنعها عن التشرد والتبدد فهي تنساق في الجهة التي يريدها»[1].

إن كنايتي ‹ضعيف العصا› و ‹صلب العصا› برغم التضاد الحاصل بينهما لغويا، إلا أن العودة للسياق الثقافي الذي أنتج هاتين الكنايتين يحيلنا على أنهما تحملان المعنى نفسه، فكلا الكنايتين فيهما إشارة إلى صفة الحذق والإتقان اللتين يتمتع بهما كلا الراعيين، وإن كانت طريقتهما في الرعي مختلفة فإن النتيجة واحدة: القدرة على التحكم في الرعية وحسن سياستها ويسر قيادتها.

نستخلص من هذا أن فهم الكناية وإنتاجها على السواء يتطلب عند القزويني العناية بالسياق الثقافي الذي تنتج فيه حتى تتيسر عملية الفهم

1-القزويني. الإيضاح. ص: 481.

والتأويل بالنسبة للمتلقي، وهذا الفهم هو ما يضعنا أمام الملمح التداولي الثاني في فن الكناية وهو المتعلق بكيفية إنتاج المعنى.

ب - الكناية وكيفية بناء المعنى:

الكناية من الفنون التي ترتبط بمتلق غير عادي، قادر على فهم ما تتضمنه العبارات لا ما تصرح به فقط، ولهذا نجد القزويني ميز في بناء المعنى الذي تقصده الكناية بين أنواع:

القريبة الظاهرة التي يتيسر فهمها، والقريبة الخفية التي تحتاج لشيء من التدبر، والبعيدة التي ينبني فيها المعنى على قدرة المتلقي الذي يمكن أن نسميه خاصا أو نموذجيا على فهم الدلالات البعيدة من خلال بناء مجموعة من العمليات الدلالية العقلية التي ترتكز على علاقة السبب بالنتيجة، وحتى أوضح هذا أكثر أمثل بمجموعة من الأمثلة التي وردت في كتاب الإيضاح:

• المثال الأول: طويل النجاد ⟵ طويل القامة.

إن الكناية هنا واضحة ساذجة لأنها لا تتطلب أية عملية عقلية أو انتقال من معنى إلى آخر لذلك فهي موجهة لأي متلق كيفما كان نوعه خاصا أم عاما.

• المثال الثاني : عريض القفا ⟵ عظيم الرأس ⟵ أبله.

إن العمليات التي أقامها المتلقي للوصول إلى معنى الكناية مقارنة مع المثال الأول شيئا ما خفية، لذلك نفترض أن القزويني يفترض وجود متلق وسط لا هو بالساذج ولا هو بالخاص، وإنما هو بين بين، فهو يتخذ وضعا وسطا، ووجود مثل هذه الكنايات التي يختلف إنتاج المعنى فيها وفهمه يدل على أن البلاغة العربية استحضرت مقامات المتلقين المختلفة التي تتطلب مقالات مختلفة حتى مع استعمال الفن البياني نفسه الذي يتحدد في الكناية.

• المثال الثالث: كثير الرماد

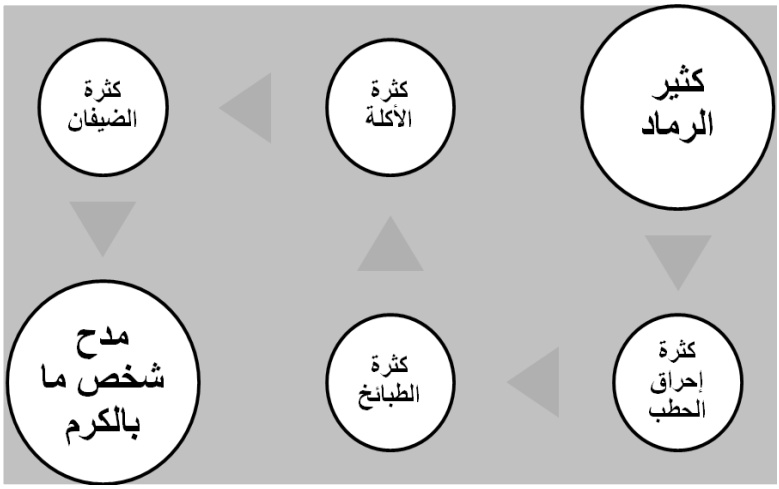

• المثال الرابع: وما يك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

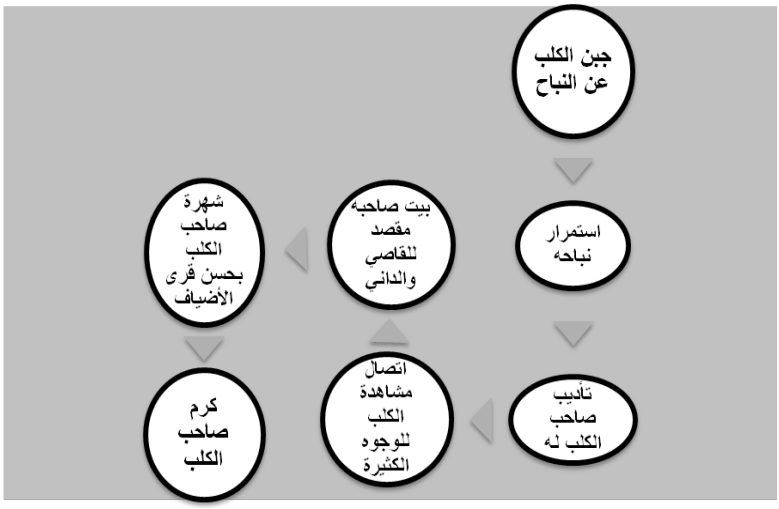

إن المثالين الثالث والرابع يحيلان على كل العمليات التي يتطلبها إنتاج المعنى في الكناية، وتأويله أيضا، وكلما بعدت الشقة بين المعنى الصريح والمعنى الضمني المقصود صار المعنى المستلزم أكثر جمالا ودقة وخفاء، يتطلب من المتلقي قدرة على تفكيك الملفوظات وفق عملية منطقية قائمة على منطق

السبب والنتيجة، إنها مسافة عقلية يطلب من المتلقي قطعها لإيجاد الرابط الذي يصل بين المكني والمكني عنه، وهي مسافة قد لا يتمكن كل المتلقين من قطعها، وهنا يظهر جمال الكناية فهي لا ترتبط بالمعنى الضمني فقط، ولكن بالمعنى الصريح أيضا، لأن كل الكنايات التي ذكرتها سابقا قد تحمل على الحقيقة أيضا فلا يختل نظام العبارة أو النص أبدا.

إن مجرى العملية التواصلية جارلا يمنع جريانه أي عائق مهما تنوع مقام المتلقي، فنحن أولا أمام كنايات تختلف درجة التأويل فيها ما بين الظاهر الواضح والخفي والبعيد، وثانيا أمام فن يمكن أن يؤول فيصح المعنى، ويمكن أن لا يؤول فيصح المعنى أيضا.

إن الخفاء الموجود في الكناية يحيلنا أيضا على مبدأ التأدب الذي أقرته التداولية لايكوف وأشار إليه غرايس، فالتضمين الذي تحتمله الكناية يستطيع المتكلم انطلاقا منه أن يراعي السياق الثقافي الذي ينتمي إليه، فيتحدث فيما يمكن أن يمثل طابوهات لا يمكن الحديث عنها، ولقد وردت كنايات كثيرة في القرآن الكريم مثلا دالة على الجماع، مثل لفظ اللمس في قوله تعالى: **(وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا)** [سورة النساء:43].

وقد جعل أبو منصور الثعالبي و أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني مدار الكناية «عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحى من تسميته، أو يتطير منه، أو يسترفع ويصان عنه، بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح، وتلطف الكثيف، وتكسوه المعرض الأنيق في مخاطبة الملوك، ومكاتبة المحتشمين، ومذاكرة أهل الفضل، ومحاورة ذوي المروءة والظرف، فيحصل المراد، ويلوح النجاح مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع إلى ما يقوم مقامه، وينوب منابه، من كلام تأذن

له الأذن، ولا يحجبه القلب، وما ذلك إلا من البيان في النفوس، وخصائص البلاغة، ونتائج البراعة، ولطائف الصناعة»[1].

إن الكناية بمراعاتها للمتلقي، ولمختلف السياقات الثقافية التي ينتمي إليها تجعل مبدأ التأدب أسا في الدرس البلاغي، فالمتكلم يتوسل بكل الوسائل الفنية والبلاغية ليؤثر في المتلقي ويكسب تعاطفه، عبر احترام الحدود التي ترسمها الثقافة التي ينتمي إليها، فلا يتكلم المتكلم إلا بما يرضي المتلقي، ولا يعمد إلى جرح مشاعره، ولا إيذاء سمعه، وهذه هي البلاغة الحقة، تلك التي تجعل المتلقي في صلب اهتماماتها ومدار العملية التواصلية.

يثير فن الكناية أيضا وطريقة دراسته عند القزويني، استحضار هذا الأخير للبعد التداولي لهذا الفن، فالمتكلم حين يختار التلميح عوض التصريح فإنه يتخذ موقفا لغويا يحمل في طياته الكثير من الدلالات، أشار إليها القزويني حين اعتبر أن قيمة الكناية تتحدد في أمرين اثنين هما: التأكيد ووسم الكلام بميسم البلاغة. وقد نقل في هذا الصدد قول عبد القاهر الجرجاني، يقول: « ...وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر.

قال الشيخ عبد القاهر: ليس ذلك لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه، بل لأنه يفيد تأكيدا لإثبات المعنى لا يفيده خلافه...والسبب في ذلك أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته دعواه بلا بينة»[2].

1-الثعالبي في كتابه «النهاية في فن الكناية». تحقيق: فرج الحوار . دار المعارف تونس . الطبعة الأولى سنة 1995م . ص: 10.

2-القزويني . الإيضاح . ص: 487.

يعود بنا هذا إلى ما أشرت له سابقا من أن البلاغة العربية تداولية بامتياز، فهي تضع عملية التواصل في صلب اهتماماتها بكل مكوناتها المتعلقة بالمتكلم والمتلقي والسياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي...

إن الكناية هنا باعتبارها صورة بلاغية، تمثل جوهر الأدب واللغة عامة، لأن الصور البلاغية على تنوعها ترتبط بمقصدية هي التبليغ والتوصيل من جهة، والتأثير على المتلقي من جهة أخرى.

إن الكناية صورة قائمة على عملية التحويل التي يقوم بها المتلقي وهذا التحويل ناتج عن الانزياح الذي تنبني عليه هذه الصورة، والانزياح في حد ذاته رغم ما يبدو فيه من غموض وإلغاز، إلا أنه مؤثر بشكل كبير في المتلقي، الذي يدفعه الغموض إلى محاولة إزاحة الحجب واقتفاء المعاني التي يريد المتكلم التعبير عنها.

إن الكناية هنا تقوم بدور الوسيط الذي ينقل أو يعكس الواقع، وهي صورة لغوية تقوم على التكثيف والاختزال والتضخيم والمبالغة وربما الكذب أيضا...ولكنها برغم كل هذا تمتلك القدرة على اختزال الكثير من الكلمات والعبارات في لفظ موجز يضغط المعاني ويوجزها بطريقة لا تخل بالبيان ولا الوضوح.

خلاصة:

كان هذا عرضا موجزا لما اعتقدت أنه يمثل ملامح تداولية في دراسة القزويني لفن الكناية، وأرجو أن يكون هذا النزر اليسير مساهمة في نفض الغبار عن تراث بلاغي ضخم يحتاج إلى من يحييه مجددا ويقربه من المتلقي في الزمن الحاضر، بلغة تتواءم مع العصر، وبمناهج لسانية حديثة، وقد توصلت من خلال البحث إلى نتائج أجملها في:

- البعد التداولي كان حاضرا وبقوة عند القزويني، ولكنه بعد غير واضح المعالم والقسمات، إذ إنه عبارة عن نكت وفرائد تحتاج من الدارس صبرا ومكابدة للكشف عنها.
- شرطا الإيضاح وتجنب الإبهام كان حاضرين بقوة عند القزويني في حديثه عن أبواب المجاز والاستعارة والكناية، وفي هذا تأكيد للبعد التداولي لهذه الأبواب ودورها في التواصل والتأثير.
- إدراك القزويني للبعد الحجاجي لفن البيان، باعتباره فنا يعتمد وسائل راقية في التواصل، تؤثر في المتلقي نظرا لطبيعتها الانزياحية.
- اللغة عند القزويني خادمة للمعاني، لذلك ينبغي على المتكلم العناية بما يتلفظ به حتى يحقق غايته من الكلام.
- استحضار القزويني لفكرة السياق والتشديد على ضرورة مراعاته، سواء تعلق الأمر بالمتكلم حين ينتج ويوظف هذه الأساليب البيانية، أو بالمتلقي حين يتلقى خطابا ما يتلون بهذه الأساليب.